جمعية الهلال الاحمر المصرية

بقلم احد اطبائها

قامت جمعية الهلال الاحمر المصرية بخدمات جليلة للعثمانيين في حربهم مع ايطاليا في طرابلس الغرب . وما شبَّت نار الحرب البلقانية حتى قام اعضاؤها برئاسة الامير محمد علي باشا وجمعوا مالاً طائلاً وارسلوهُ الى تركيا لتنشئ به مستشفى في ادرنه

ولا بدع ان هزت الاريحية معاطف المصريين لاعانة اخوانهم العثمانيين فالروابط الدينية التي تربط الفريقين متينة جدًّا ولا اظنني مخطئاً اذا قلت ان هذه الحرب في نظر الفلاح المصري دينية اكثر منها سياسية — اي انهُ لا يعرف انها نتيجة سوء الادارة العثمانية في القرون الماضية

ولما اتسع نطاق الحرب رأت جمعية الهلال الاحمر المصرية ان ترسل الى ساحات القتال بعثات مجهزة بجميع ما يلزم لاسعاف الجرحى . فارسلت لهذا الغرض اربع بعثات طبية وكان كاتب هذه السطور في البعثة الثانية واليك بعض ما قامت بهِ هذه البعثات وبعض ما شاهدتهُ في الحرب الحاضرة

كانت البعثة الاولى مؤلفة من مستشفى ميدان وسبعة اطباء اكثرهم من اطباء الجيش المصري السابقين فلم يكن ما انتدبوا لهُ امراً جديداً لديهم وكانت مجهزة بجميع اللوازم وفيها ستون رجلاً يعينون الاطباء و يعتنون بالدواب وامور النقل وغيرها وسبعون بغلاً لنقل الاثقال . ولما وصلت الى الاستانة أُرسلت حالاً الى خطوط العثمانيين الامامية فضربت خيامها بالقرب من جبتالجه

و برد الهواء وكثر المطر بعد عقد الهدنة حتى لم تعد الخيام التي اعدتها البعثة تصلح لإيواء الجرحى والمرضى فاقيم لها مستشفى من الخشب في خادم كوي (وكانت اذ ذاك المركز العمومي لقيادة الجيش العثماني) . وقاست ما قاساهُ سائر الجيش العثماني من قلة الاطعمة . والحق يقال ان تقصير الموكلين بارسال المؤنة للجيش هو السبب الاكبر في فشله . فقد رأينا ضباطاً قضوا ثلاثة ايام لم يذوقوا فيها طعاماً واخبرنا بعض الجنود انهم بقوا ثمانية ايام او تسعة بلا قوت في واقعة لولو برغاس و بعدها . وفي جبتالجه نفسها وهي على ٢٥ ميلاً فقط من الاستانة لم يكن للجنود ما يكفيهم من القوت . واليك حادثة صغيرة يظهر منها ما وصل اليهِ

الضباط انفسهم . وكب بعض رفاقنا من الاطباء المصريين ذات يوم القطر الذي يسير من خادم كوي الى الاستانة واتفق ان كان معهم في المركبة التي كانوا فيها ثلاثة ضباط عثمانيين . فلما قام القطر بهم اخرج احد هؤلاء الضباط كسرة من الخبز اليابس فاقتسمها هو ورفيقهُ . فاما كان من الضابط الثالث الذي لم يكن الاثنان الاولان يعرفانهِ على ما يظهر الاَّ ان رجاهما ان يعطياهُ قطعة منها يتعلَّل بها . فمدَّ اليهِ الضابط الاول القطعة التي بقيت لهُ لكي يكسر منها كسرة صغيرة لكنهُ بقي ممسكها بكلتا يديهِ لئلا يكسر منها اكثر من نصفها . فلما شاهد اطباؤنا ذلك بادروا الى تقديم الطعام للضباط مما كان معهم فاكلوا وشبعوا بعد ان كانت قد انقضت عليهم شهور لم يأكلوا طعاماً مثل ذلك

ولقي رجال البعثة الاولى كل حفاوة وترحيب من الضباط العثمانيين الذين رأوهم وسمع لهم ان يروا خطوط التحصين في چناجله كلها ولم يسمح بذلك للبعثات التي تلتهم لانهُ حظر الذهاب الى حصون چناجله لا سيما بعد ان قضى طيبان انكليزيان يوماً كاملاً يجولان فيها ويصوّرانها بدون استئذان . ولما علم ارباب الامر انهُ يسهل على الغريب الوصول اليها وتصويرها شددوا في عدم السماح لاحد بالدنو منها

وكانت البعثة الثانية (وكاتب هذه السطور منها كما تقدم) مؤلفة من مستشفى فيهِ مئتا سرير ولا ينقصهُ شيء . وكنا قد اتينا من مصر بكل ما يلزمنا من امرة وكتان وثياب للجرحى وطاولتين للعمليات الجراحية وكل ما يلزم المستشفيات وادوية ورقائد وجهاز لاشعة رنتجن وعدة لفحص البكتريولوجي وآنية للطبخ وكل ما يحتاج اليهِ الاطباء والمرضات من الاثاث وزاد كافٍ لاطعام البعثة والجرحى الذين تعتني بهم مدة شهرين . واكثرنا من الزاد لانهُ كان قد بلغنا ان الناس يموتون جوعاً في الاستانة وذلك صحيح ولكن لم يكن سببهُ قلة الاطعمة في المدينة بل كثرة اللاجئين اليها واختلال الاحوال فيها . ولقد كفانا احتياطنا للامر مؤونة السعي للحصول على الاطعمة

اما رجال البعثة فكانوا مزيجاً من الاوربيين والمصريين فقد كان مديرها طبيباً المانياً سبقت لهُ خدمة كجراح في البحرية وكان كاتب هذه السطور الانكليزي الوحيد فيها . ومن بقي من الاطباء وهم خمسة مصريون وواحد منهم مختص باشعة رنتجن . ثم انضم الينا طبيب وبكتريولوجي وعشر ممرضات من الالمان امدتنا بهم جمعية الصليب الاحمر . وكان معنا ٢٥ من الاعوان للمستشفيات وطباخ وحلاّق ونجار . وبعض هؤلاء الاعوان كانوا في طرابلس الغرب ويحسنون التركية والعربية فكانوا لنا تراجمة حتى تعلمنا من التركية ما

يكفينا . وكان بعض المصريين يحسنون الالمانية والفرنسوية والانكليزية فلم يصعب علينا التفاهم مع من انضم الينا من الالمان

وأعطينا مدرسة في مكان يعرف بكلربك على العدوة الاسيوية من السفور بالقرب من القصر المحجور فيه على السلطان السابق عبد الحميد فحوّلناها الى مستشفى عالجنا فيه كثيراً من الجرحى . ومن الذين عالجناهم كثيرون من الذين اصيبوا بجراح من رصاص البنادق او قنابل شرابنل وغيرهم ممن اضرّ بهم الصقيع . وقد شاهدنا جراحاً غريبة نشأت عن رصاص البنادق . ومن المعلوم لدى الجراحين العسكريين ان الرصاصة تسير في الجسم غالباً في طرق لا تخطر على البال . وقد شاهدنا جرحاً من هذا النوع في جندي اصابته رصاصة عند كتفه اليسرى فنفذت في القسم الاسفل من عنقه الى ان استقرت في الغدة الدرقية الى يمين القصبة ولم تؤذِ الاوعية الدموية ولا غيرها مما في العنق . وقد يصعب تصديق ذلك ولكنا شاهدناه بانفسنا . ولا نقل هذه الحادثة في غرابتها عن حادثة الرصاصة التي اصابت احد الجنود في الحرب التي ثارت في جنوب افريقية عند تولوته ثم استقرت في عقب قدمه الايمن

وكان في سان ستفانو نحو خمسة آلاف من الجنود المصابين بالكولرا والدوسنطاريا ولم يكن لهم مأوى ولا ملجأ ولا طبيب يعتني بهم فارسلت بعثتنا فريقاً منها لاسعاف المأمورين العثمانيين الذين كانوا يعيشون لهم المأوى فاقاموا لهم احدى عشرة سقيفة كبيرة من الخشب في موقع جميل على اكمة تطل على بحر مرمرا . وكانت تسعة من هذه السقائف ملاجئ يسع كل منها ستين مريضاً وجعلت الثنتان الباقيتان محجراً للناقهين يحجر عليهم فيه خمسة ايام قبل ان يسمح لهم بالخروج . فان كان الناقه من صف الجند الظابط وكانت حالته تمكنه من العودة الى الجيش اعيد اليه ثانية وان كان من صفوف الجيش الاخرى سمح له في الغالب بالعودة الى بيته

وكان على مقربة من هذه السقائف مستشفى لجمعية الصليب الاحمر الانكليزية يسع نحو ١٥٠ سريراً ويتألف من تسعة بيوت بنيت برب الورق Papier Mâché فكانت دافئة واسباب الراحة متوفرة فيها

وعلى مقربة من ذلك المكان مدرسة يونانية وضع فيها اربعون سريراً وكان فيها قبل ذلك عندما بدأ تفشي الدوسنطاريا والكولرا ٤٠٠ مريض ينامون على الارض لا غطاء ولا

وطاء . وكان بالقرب من محطة السكة الحديدية اربع مقائف من الخشب جُعلت لايواء الذين لم تُثقل عليهم وطأة المرض

واقام بكتريولوجي بعثتنا معملهُ البكتريولوجي في سان ستفانو واثبت وجود جراثيم الكولرا ثم استلم ادارة المعمل بعد ذلك بكتريولوجي مصري مشهود لهُ بالكفاءة . اما نحن الذين كنا نعالج المرضى فرأينا ان حوادث الكولرا لم تكن اكثر مما تكون عادة عند بعثة الجيوش العثمانية وان الدوسنطاريا والجوع والبرد لم تكن اقل منها فتكاً . ولما اشتد الحر في نوفمبر بلغ عدد الوفيات كل يوم سبعمئة في الفرق المرابطة في الخطوط الامامية وثلاثمئة في سان ستفانو ثم قلّ عدد الوفيات لما برد الهواء

وكنت موكلاً باحدى المقائف الخشبية الكبيرة التي على الاكمة ووجدت في عملي لذة وفائدة . ومما زادني رغبة في العمل انني كنت اعمل ما عملهُ ابي قبلي منذ خمس وثلاثين سنة اذ خدم الجيش العثماني بطبيباً في الحرب الروسية العثمانية

وعلى مقربة من سان ستفانو نصب اقامةُ الروس ذكراً لضباطهم وجنودهم الذين قتلوا في تلك الحرب (١٨٧٧ — ١٨٧٨) وخمسة عشر الفاً من الروس فتكت بهم الكولرا لما كان جيشهم هناك

وكانت البعثة الثالثة مؤلفة من ٢٠ طبيباً مصرياً لمقاومة الكولرا فانقسمت الى فريقين فريق قام على العناية بمستشفى فيهِ اكثر من الف فراش في مكان يعرف بجال تپه وفريق اقام في سان ستفانو . ولما استؤنفت الحرب اقيم في سان ستفانو مستشفى صغير للجرحى

وكان الامن مستتباً في الاستانة ولم يظهر من مسلميها اقل عداء لمسيحييها ولا عدوا هذه الحرب حرباً دينية ومن المؤكد ان معظم الجنود لم يحسبوها دينية ايضاً . ولكن مظهر المدينة كان يدل على الحرب فلا ترى في الاسواق الاّ جنوداً وضباطاً ولا تأتي الساعة السابعة مساء حتى تبطل كل حركة . وحُظر على الناس الخروج بعد الساعة العاشرة واغلقت محال الاجتماعات العمومية الاّ في بيرا (حي الادريين) حيث بقي مشهد او مشهدان يعرضان الصور المتحركة وقاعة موسيقية يتردّد اليها المكاتبون الحربيون الذين بقوا في الاستانة

ومما يذكر بالاسف كثرة الحرائق في الاستانة فلم يكن ينقضي اسبوع الاّ وتشب النار في جهة منها فتلتهم بضع بيوت او ثلاثمئة ورجال المطافئ هناك على جانب كبير من الشجاعة والاقدام ولكن اكثر البيوت من الخشب ووسائط استحضار الماء تكاد تكون معدومة والقارىء بعد هذا ان يتصور النتيجة

وبعد ما حدث انقلاب الوزارة ظهرت روح جديدة في الشعب والجيش . فاخذ الناس يؤلفون فرق المتطوعين وبدأ الجيش بالران والمناورات وكان قد اهمل ذلك من قبل . وكنت ترى كل من تلقاهُ واثقاً بالنصر للجيش العثماني يؤمل انهُ يهزم جيوش البلغار ويسترد منهم تراقية ويرفع الحصار عن ادرنه . وكل ما اشيع عن اختلاف الضباط واقتتالهم بعضهم مع بعض عارٍ من الصحة . وكانت اميالنا مع العثمانيين لكننا نرى ان شروط الصلح شائنة لهم مع انهُ ربما كان عقد الصلح خير ما تعملهُ الحكومة في الاحوال التي وصلت اليها

وكان لسان حال كل واحد يردد دعاء احد كتاب الانكليز الذي قال مخاطباً الكلترا « ان كان قد دنا القضاء عليك فليكن ذلك القضاء شريفاً . وان كان لا بدَّ من غرقك فليكن في الدم والنار وتجرّعي معك اكثر من شعب واحد يشاركك في سقوطك . واسرع الى الله ان يكفيك عار ميتة بطيئة تصل بك قبل الانقراض الى حالة تمنين فيها هزءاً وعبرة لاعدائك الذين لا يسعهم على حسدهم وبغضهم لكِ الاَّ ان يخافوك ويجلّوك رغماً عن انوفهم »

وحاول انور بك ان ينزل بار بعين الف جندي الى البر في رودستو (وهي متوسطة بين غاليبولي وچاتالجه) او بالقرب منها لكي يفصل بين جيشي البلغار في غاليبولي وچاتالجه . وطُلب من جمعية الهلال الاحمر المصرية ان تجهّز مستشفى لهذه الحملة فاعددت عدتي انا وطبيبان مصريان لكي نلحق بها وهيأنا مستشفى يسع مئتي جريح واعددنا ما يلزم من كتان وثياب للجرحى وطاولات للعمليات الجراحية وزاد يكفينا اسبوعين قبل ان تبدأ المؤنة بالوصول الينا وصولاً منتظماً . الاَّ ان انور بك لم يفلح في عمله هذا لسوء الحظ فذهبت اتعابنا سدًى

وكانت البعثة الرابعة مؤلفة من باخرة حوّلت الى مستشفى تجول في بحر ايجه لنقل جرحى العثمانيين من سلانيك الى ازمير واعانة العثمانيين البائسين الهاربين من وجه البلغار

وبلغتنا اخبار كثيرة عن الفظائع التي ارتكبها البلغار واخشى ان تكون صحيحة . وقد قيل انهم قتلوا كل رجل تركي التقوا بهِ ولم يحجموا عن التعرض للنساء

وجاءنا الينا في سان ستفانو صبي تركي عمرهُ نحو ست سنوات اذ لقي من عنايتنا بهِ ما لم يلقهُ من ادارة البوليس وكان يتكلم التركية جيداً مما يدل على انهُ من عائلة راقية لكن اباهُ وامهُ قتلهما البلغار ثم تبنّاهُ احد الاطباء المصريين واتى بهِ الى مصر

وقد اقتصرت في ما تقدم على ذكر القليل من الامور التي رأيتها والتي سوف تبقى في ذاكرتي ما دمت حيًّا